محاضرات تكميلية لفائدة طلبة الفصل الثاني علم الاجتماع

كلية الآداب ظهر المهراز فاس

وحدة: نظريات سوسيولوجية معاصرة

كما سجلنا في المحاضرات السابقة، ومنذ المحاضرة الأولى، فالتعرض للنظريات السوسيولوجية المعاصرة، أي عرض نماذج من هذه النظريات ومناقشتها، لن يستقيم إلا بالوقوف عند مفاهيم النظرية، والنظرية العلمية، والعلم، والنظرية السوسيولوجية. وهذا ما قمنا به في المحاضرات الخمس السابقة حيث كنا قد وصلنا إلى مناقشة النظرية السوسيولوجية بوصفها نظرية علمية. وبعد أن بينا ذلك، انتقلنا إلى الحديث عما يميز النظرية السوسيولوجية عن النظريات العلمية الأخرى، تحت عنوان خصائص النظرية السوسيولوجية.

وفي هذا السياق اعتبرنا أن أهم خصائص النظرية السوسيولوجية هي:

ـ منهجها أومناهجها

ـ موضوعها أو مواضيعها

ـ خاصيتها النقدية.

* ـ المنهج

كنا قد بدأنا الحديث عن العنصر الأول، المنهج في النظريات السوسيولوجية. ولأن هناك وحدات أخرى سابقة (أسس علم الاجتماع، ميادين علم الاجتماع) ولاحقة (المناهج الكمية، المناهج الكيفية) تدرسون فيها بشكل ما إشكالية المنهج، فلن نقف كثيرا عند هذه المسألة، إنما نطرح بعض القضايا والتوضيحات التي نعتبرها ضرورية للطالب\ة.

أعيد التنبيه إلى أن المنهج يكتسي قيمة كبرى في العلوم الاجتماعية بوجه عام والسوسيولوجيا بوجه أخص، ولا يجب أن نعتبره مجرد تقنيات وآليات قابلة للتطبيق، بل إنه أعقد من ذلك بكثير لأنه يرتبط بتصور الباحث ورؤيته التي تستند على موقف نظري علمي وفلسفي.[1]

فالمنهج هو الذي يملي على الباحث كيفية تصور وتنظيم عملية البحث وإن بشكل غير دقيق، ولذلك ف"كل المناهج لا تحمل بنفس الكيفية على نفس خطوات البحث".[2] فقد تُطبق نفس التقنيات والأدوات في تخصصات علمية مختلفة، ولكن مع ذلك تختلف المناهج وتتعدد، لأن هذه التقنيات والمحطات المنهجية "تتخذ أشكالا مختلفة وتراكيب متمايزة .. بحسب وجهة النظر التي ينتمي إليها المنهج."[3]

وعموما، ومهما تابعنا الحديث عن المنهج، أو مهما اطلع الباحث على ما يقال عنه في الكتب، وعلى التجارب البحثية المختلفة، فلا يعني هذا تملكه والتمكن منه. **فالمنهج ليس مسألة نظرية فحسب وإنما هو معرفة تُعرف وتتطور مع ما يُعرف كما يقول غاستون باشلار**.[4] فالتعلم النظري لتقنيات السباحة لا يجعل من الإنسان سباحا. ولذلك لا يصح أو لا يكون من السليم "أن ندرس المنهج بمعزل عن الأبحاث التي يستخدم في سياقها، إذ ما نحصل عليه في هذه الحال لن يتعدى كونه دراسة ميتة تعجز عن تلقيح الذهن الذي ينكب عليها"[5] كما يقول بيير بورديو. إننا نعتبر بأن عملية البحث هي الممارسة الكفيلة بتنمية الجوانب المنهجية والتقنية عند الباحث، دون أن يعفيه هذا من أن تكون لديه، وبالضرورة، رؤية أو موقف نظري علمي يقوده نحو غاية معينة. وبالنسبة لطلبتنا فوحدتي المناهج الكمية والمناهج الكيفية (الفصل الثالث) ستكون فرصة لهم للوقوف على هذا الأمر.

---

[1] - Madeleine Grawitz , 2001, Méthodes des sciences sociales, Dalloz, Paris, 11ème édition, p. 351.

[2] - Ibid., p. 351.

[3] ـ عبد الله إبراهيم، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، ط. 1، 2001، ص. 116.

[4] ـ بيير بورديو وجون كلود باسرون وجون كلود شامبوردون ، حرفة عالم الاجتماع، ترجمة نظير جاهل، دار الحقيقة، ط. 1، 1991، ص. 15.

[5] ـ نفسه، ص. 5.

ولأنه لا يوجد منهج سوسيولوجي واحد موحد كما يبين ذلك رايمون بودون،[6] فإن ما نعنيه بالمنهج السوسيولوجي بشكل عام هو دراسة الاجتماعي ومحاولة فهمه وتفسيره بما هو اجتماعي، أكانت الأرضية اقتصادية أو ثقافية أو سياسية أو غيرها من المتغيرات المادية أو الرمزية، استنادا إلى موقف علمي أو فلسفي معين. أي لا نعتمد على التفسيرات اللاهوتية أو الأسطورية أو الخرافية إلا حينما ندرجها ضمن تمثلات أو مواقف ثقافية أو اتجاهات إيديولوجية. فالباحث السوسيولوجي يحاول الكشف عن حقيقة الخلفية الاجتماعية لكل الممارسات البشرية، ما دامت السوسيولوجيا هي في النهاية، كما يقول بيير بورديو، محاولة تقديم "حقيقة العالَم الاجتماعي".[7] وتأسيسا على ذلك، فعوض الحديث عن مناهج علم الاجتماع نتحدث عن منهج سوسيولوجي ومقاربات سوسيولوجية. فالمنهج واحد والمقاربات متعددة.

فالمقاربة وجهة نظر أو منهج من داخل المنهج. إنها منهج للتفكير وموقف مرن وفطن اتجاه الحدث أو الموضوع، وهي بذلك منهج يستدعي تقنية معينة، ويستعملان بشكل متجانس.[8]

ـ * الموضوع

لا شك أن طلبة هذا الفصل (الفصل الثاني) قد اطلعوا، في وحدتي أسس علم الاجتماع وميادين علم الاجتماع (الفصل الأول)، على نشأة هذا العلم وتعريفه، وعلى بعض رواده ومفاهيمه وإشكالاته وفروعه... وخلال ذلك فقد كانت لهم الفرصة للتعرف على موضوع علم الاجتماع. لذلك لن نعيد الحديث في الموضوع تجنبا للتكرار وربحا للوقت من أجل مطارحة قضايا أخرى. وما أعرضه هنا هو عبارة عن أفكار ومعطيات عامة مختصرة لكنها ضرورية على سبيل التأكيد.

---

[6] ـ لا يتحدث رايمون بودون ورونو فلجول (أو فيول) في كتابهما *المناهج في علم الاجتماع* عن منهج سوسيولوجي واحد وإنما يبسطون العديد من المناهج أو المقاربات من منظورنا. يكفي الرجوع إلى خاتمة الكتاب لتبين ذلك.
- Raymond Boudon et Renaud Filijeule, Les méthodes en sociologie, Que Sais-Je ?/ Puf, conclusion. (ouvrage disponible sur internet).

[7] - Pierre Bourdieu, 1984, Questions de sociologie, Les éditions de Minuit, Paris, p. 48.

[8] - Madeleine Grawitz , 2001, Méthodes des sciences sociales, op. cit., p. 353.

في سياق بحثه عن تحديد لموضوع العلم الجديد سيعلن **أ. كونت A. Comte** بأن الموضوع الخاص للعلم الذي يبشر به هو **الظواهر المجتمعية**.[9] مضيفا بأن هذا التخصص الجديد هو "العلم الحقيقي بالطبيعة البشرية" الذي يتوجه إلى "الدراسة الوضعية لمجموع القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية".[10] ولكن أ. كونت لم يتمم العمل ويحدد بشكل دقيق ما المقصود بالظواهر الاجتماعية، وكيف يمكن تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على موضوع هو أعقد بكثير من الظواهر الطبيعية. أي أن علم الاجتماع لم يعرف اكتمال أسسه مع رواد الفكر الاجتماعي الأوائل (كوندوسيه، سان سيمون، مونتسكيو،..) ولا حتى مع أوغست كونت. وهذا ما سيقوم به **إميل دوركهايم** على أكمل وجه حيث سيصل بهذا العلم إلى نهاياته المنطقية القصوى من خلال منجزه النظري والتطبيقي.

لقد نظر دوركهايم لهذا العلم وحدد منهجه وموضوعه، وقام بالعديد من الدراسات التطبيقية (تقسيم العمل الاجتماعي، الانتحار، الأشكال الأولية للحياة الدينية) ليكشف إمكانيات هذا العلم في دراسة الظواهر الاجتماعية وتقديم فهم وتفسير لها من منظور جديد. فقام بمجهود معتبر لتحديد ما به يصبح كل فعل اجتماعي ظاهرة اجتماعية.

فالظاهرة الاجتماعية يجب أن تكون: ـ مستقلة عن الأفراد وقابلة للتكرار.

ـ قهرية، تفرض ذاتها عليهم قسرا.

ـ عامة لأنها اجتماعية وليس العكس.

وبعد مجهودات دوركهايم وكل السوسيولوجيين الآخرين من أجل تأسيس هذا العلم على مستوى المنهج والموضوع، انفتحت الدراسات السوسيولوجية على مختلف القضايا الإنسانية المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية. وهذا ما دفع **ألان تورين** A. Touraine إلى جعل العلاقات الاجتماعية هي الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع لأنها تكشف لنا عن الأنساق الاجتماعية، أي عن ميكانيزمات أو آليات تشكل الممارسات الاجتماعية.[11]

[9] - Auguste Comte, Textes, Bordas, p. 105.
[10] - Auguste Comte, Cours de philosophie positive, 1839, p. 252.
[11] - Alain Touraine, 1974, Pour la sociologie, Editions du Seuil, Points, Paris. p. 56.

ويمكن القول بأن موضوع علم الاجتماع يمتد حاليا، وبفضل اجتهادات الباحثين في المجال، إلى كل الديناميات البشرية. "فالسوسيولوجيا ـ يقول ماكس بريشيل Max Brichel ـ هي دراسة العلاقات الاجتماعية والممارسات الإنسانية في المجتمع. فيمكن لها دراسة الفرد في تفاعلاته مع المجتمع، أو دراسة المجموعات البشرية في تفاعلها مع مجموعات أخرى. وهكذا نلاحظ البعد الماكروسوسيولوجي والميكروسوسيولوجي."[12] لقد أصبحت السوسيولوجيا قادرة على تناول ومعالجة مختلف القضايا، حتى الميتافيزيقية منها، بتحويلها إلى موضوعات سوسيولوجية، كما يؤكد على ذلك بيير **بورديو** P. Bourdieu "السوسيولوجيا كما أتصورها، هي تحويل القضايا الميتافيزيقية إلى قضايا قابلة لأن تعالج معالجة علمية، وبالتالي سياسية."[13]

* ـ الخاصية النقدية لعلم الاجتماع

من بين ما يقوم عليه علم الاجتماع، النقد باعتباره الخاصية الأساسية التي تقوم على طرح السؤال. إنه يقوم بمساءلة القضايا ومساءلة نفسه ومساءلة العلوم الأخرى. وفي هذا السياق يقول بيير بورديو: "لا يقوم علم الاجتماع، في الواقع، إلا بطرح أسئلة على العلوم الأخرى، وهي الأسئلة التي تطرح عليه بشكل حاد. وإذا كان علم الاجتماع علما نقديا، فربما لأنه، هو نفسه، في وضع حرج".[14] ولأن طرح السؤال يشكل عنصرا جوهريا في عملية النقد، فإن مهمة عالم الاجتماع وهويته تصبحان محددة بهذه الخاصية: أي النقد. "فعلم الاجتماع، كنظرية نقدية، يقول أنتوني غدنز، لا يقبل العالَم الاجتماعي بوصفه شيئا مسلما به، بل إنه يطرح سؤالا مؤداه: ما هي أنماط التغير الاجتماعي الممكنة والمرغوب فيها؟ وكيف يمكن لنا أن نجاهد من أجل تحقيقها؟"[15]

---

[12] - Max Brichel, Introduction à la sociologie : des pères fondateurs aux sociologies contemporaines, p. 3.

[13] - Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, op. cit., p. 49

يمكنكم الرجوع أيضا إلى مقال مهم لرايمون بودون منشور بالموسوعة الفرنسية إنفارساليس

Raymon Boudon, sociologie – les développements, Encyclopédie Universalis.

[14] - Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, op. cit., p. 20.

[15] ـ أنطوني غدنز، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة أحمد زايد وعدلي السمري ومحمد محيي الدين ومحمد الجوهري، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، ط. 2، 2006، ص. 194.

كما أن السوسيولوجيا، بوصفها علما نقديا، لا تتردد في مساءلة البداهات والمسلمات، وتحاول البحث في أسسها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. ولأنها كذلك فهي علم مزعج. فحينما طرح السؤال على بيير بورديو: هل العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع بوجه خاص، حقا علوما؟؟ أجاب "يبدو لي أن السوسيولوجيا تمتلك كل الخصائص التي تجعل منها علما. ولكن إلى أي درجة؟ هذا هو السؤال. والجواب الذي يمكن تقديمه يختلف كثيرا من عالم اجتماع إلى آخر.... إن عموم السوسيولوجيين الجديرين بهذا الاسم يتفقون على رأسمال مشترك من المكتسبات: المفاهيم والمناهج وإجراءات التحقق... يبقى أن علم الاجتماع، لأسباب سوسيولوجية بديهية (ومن بينها أنه يلعب دور الملجأ أو الملاذ باعتباره تخصصا علميا)، تخصص مشتت بشكل كبير (بالمعنى الإحصائي للكلمة) وذلك من وجهات نظر مختلفة. وهو ما يعطي الانطباع بأن السوسيولوجيا تخصص منقسم، أقرب إلى الفلسفة منها إلى العلوم الأخرى. لكن المشكلة لا تكمن هنا؛ **ذلك أنه إذا كان الجدل يتركز حول مسألة علمية السوسيولوجيا، فلأنها تزعج"**[16]

وعلم الاجتماع يزعج لأنه ينتقد، ويطرح السؤال بكل جرأة، بل في بعض الأحيان يطرح السؤال على ما لا يقبل طرح السؤال. ويحاول الكشف عما هو خفي. لذلك تجده في العديد من الأحيان يطرح مشكلة بالنسبة للسلطات ولرجال الدين ولأصحاب الرساميل.

إنه يكشف مثلا عن أشياء خفية وأحيانا مكبوتة، فالمرئي والظاهر يخفي واقعا آخر أكثر عمقا، والكشف عنه هو الذي يمكننا من الوقوف على القوانين المتحكمة فيه. وهذا الكشف هو مهمة وغاية المعرفة العلمية. لذلك إن تم الاقتصار على المعرفة الشائعة وعلى الصور العفوية التي يكونها الأفراد حول علاقاتهم الاجتماعية وواقعهم المعيش لن يمكن عالِم الاجتماع إلا من إنتاج معرفة مبتذلة. "فليس ثمة فارق جوهري بين النماذج العفوية التي يكونها الأفراد عن مجتمعاتهم بهدف فهمها، أو بين منظومة الأفكار التي يحملون فيما يتعلق "ببناهم الاجتماعية في الواقع العملي" وبين النماذج المتحذلقة التي يصوغها علماء الاجتماع والاقتصاديون"، حينما "ينطلقون من الصور العفوية ذاتها بحيث إن نماذجهم "لا وجود لها إلا كأبنية منطقية في أذهانهم". (موريس غودولييه، "الوظيفية والبنيوية والماركسية"، مجلة النهج، ص. 239.)

[16] - Pierre Bourdieu, Questions de sociologie, op. cit., p. 19.

إن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وكيفية إنتاجها ليست موضوعات جاهزة للفهم والمعرفة المباشرة عبر التجربة، بل هي حقائق لا بد من إدراكها عبر الاكتشاف العلمي. فالواقع معقد، وإدراكه لا يتحقق إلا من خلال بنائه و"إعادة إنتاجه عبر قيام الفكر بصياغة محتواه" (نفسه، صص. 240-241) لذلك فعملية النقد هي من صميم الممارسة السوسيولوجية، بل لا تستقيم هذه الأخيرة إلا بقيامها على الأولى، شرط "أن تكون أسلحة النقد علمية كي تكون فعالة"[17]

يمكن القول إذن، إن النظرية السوسيولوجية نظرية علمية نقدية. إنها تهدف إلى فهم وتفسير الظواهر المدروسة؛ الظواهر الاجتماعية عموما، من منظور نقدي. وبهذا المعنى تكون امتدادا للفكر الاجتماعي الذي ترجع جذوره إلى المفكرين والفلاسفة اليونان.

إلا أن النظرية السوسيولوجية المعاصرة، حسب أنطوني غدنز Anthony Giddens، لا يجب أن تقتصر على الوصف والتفسير، فالفكر السوسيولوجي ـ بوصفه نشاطا نقديا ـ يجب أن يتبلور حول الأبعاد الثلاثة للخيال السوسيولوجي: ويقصد بذلك "بعض أشكال الحساسية المرتبطة ببعضها البعض، والتي لا غنى عنها للتحليل السوسيولوجي". وهاته الأبعاد هي الحساسية التاريخية والأنتروبولوجية والنقدية.

أي على الباحث السوسيولوجي الإحساس، في المقام الأول، بالبعد التاريخي وإدراجه ضمن بحوثه (هنا تحضر مساهمات فيبر وبيير بورديو)، وعليه في المقام الثاني زرع النظرة الأنتروبولوجية في وعيه. وفي هذا السياق يقول برتراند راسل: "إن دراسة الأنتروبولوجيا قد جعلتنا ندرك بوضوح حجم المعتقدات التي لم يكن لها أساس من الصحة، والتي أثرت في حياة الكائنات البشرية غير المتمدنة: فالمرض يعزى إلى الشعوذة، وتردي المحاصيل يعزى إلى غضب الآلهة أو إلى الأرواح الشريرة، وتقديم القرابين البشرية يبشر بالنصر في الحروب أو يخصب الموسم الزراعي، أما الكسوف والخسوف وسقوط النيازك فأمور تتبعها كوارث..."[18]

[17] - Ibid., p. 24.

[18] ـ برتراند راسل، أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الملوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1، 2008، ص. 20.

وأخيرا عليه أن يرتكز في المقام الثالث على النقد كهوية. ويعتبر غدنز فضلا عن ذلك بأنه "لا يمكن التوصل إلى فهم للعالم الاجتماعي.. إلا عبر ممارسة الخيال على هذه الأصعدة الثلاثة في نفس الوقت".[19]

وفضلا عن كل ما سبق، فقد ساهمت النظرية السوسيولوجية، كغيرها من النظريات العلمية في تجاوز بعض مظاهر التفكير الخرافي والأسطوري والسحري، وبمعنى ما في ما سماه فيبر بفك السحر عن العالم le désenchantement du monde.

سأوافيكم في ما بعد بمضامين المحاضرات المتبقية.

[19] ـ أنتوني غدنز، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، م. س، ص. 33.